

سخرية التضاد والمفارقة المجازية

في كافوريات المتنبى⁽¹⁾

إبراهيم أسيكار

قضى المتنبى ما يقرب من تسع سنوات لدى الخليفة الحمداني سيف الدولة في حلب، وهو الخليفة الذي جسد للمتنبى فرصة تحقيق أمل إمارة الشعر وإمارة الناس اللتين تراودانه. فقد لقي المتنبى عند سيف الدولة — حسب ما يرى طه حسين — "خير ما لقي في حياته كلها، لا من جهة الثروة والغنى وخفض العيش ولين الحياة... كانت حياة سيف الدولة حياة بطولة كلها، تملؤها الحرب في أكثر أوقاتها... وكان المتنبى يشارك سيف الدولة في هذه الحياة وفيما كان يملؤها من بطولة"⁽²⁾.

بيد أن المتنبى لم يكن الشاعر الوحيد الذي جعله سيف الدولة الحمداني إلى جانبه لتكتمل لديه بطولة الحرب وبطولة الشعر، بل أحاط به أيضا شعراء آخرون أمثال: أبي فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة والشاعر السري الرفاء. هذا بالإضافة إلى ثلة من خيرة اللغويين والفلاسفة أمثال: عبد الله بن خالويه وأبي الفتح بن جني وأبي نصر الفارابي. وقد كان بعض هؤلاء يحقد على المتنبى غيرة منه. وصور المتنبى تضجّره من ذلك مخاطبا سيف الدولة قائلا:

أَزَلَّ حَسَدَ الْحُسَادِ عَنِّي بِكَيْتِهِمْ *** فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَدًا (3)
وَمَا لِكَلَامِ النَّاسِ فِيمَا يَرِيُونِي *** أَصُولٌ وَلَا لِقَائِيهِ أَصُولُ (4)

ونظرا لما في هذين البيتين من عتاب، أحس المتنبى بالخطر على حياته فقرر الفرار مع أسرته خفية من حلب، وخاصة بعد أن طلب السامري من سيف الدولة أن يسعى في دمه فهجاه المتنبى قائلا:

أَسَامِرِي ضُحْكَةً كُلُّ رَأْيٍ *** فَطِنْتُ وَأَنْتَ أَعْنَى الْأَعْيَابِ (5)

هكذا ترك المتنبى سيف الدولة الحمداني الذي يعتبر جزءا من حياته ونبوغه على الرغم من غضبه عليه، متجها صوب مصر حيث كافور الإخشيدي، العبد الذي انتزع الإمارة من الابن القاصر لسيد الإخشيد، فحكم مصر وأصبح فيها السيد المطاع. وقد قضى المتنبى ما يقرب من أربع سنوات في مصر

ولازال حلم الإمارة يسكنه وهو في ضيافة كافور الذي سمى نفسه بالأستاذ نظرا لما له من "نظر في العربية والأدب والعلم... يعرف قدر العلماء ويكبرهم... ويضم مجلسه صفوة الوزراء وجملة العلماء وكبار الكتاب وعظماء اللغويين" (6). وهكذا وجد المتنبي نفسه مرة أخرى في وضع لا يقل خطورة عن الوضع الذي فرّ منه في حلب لدى سيف الدولة.

لقد جاء المتنبي إلى كافور والأمل يحدوه ليعوّض فرصة الإمارة التي فاتته عند سيف الدولة، فانبرى من أجل الفرصة نفسها يمدح كافور في جماله وعطائه وشجاعته وملكه... هذا مع أنه لم يكن قط صادقا في هذا المدح. ذلك أنه "عندما كان يمدح كافور كان يصدر عن الرغبة وحدها وكان مضطرا إلى أن يكظم عواطف البغض ويحمل نفسه على ما لا تريد" (7). ومن الأبيات الدالة جدا على رغبة المتنبي في أن يوليه كافور الولاية قوله مادحا إياه:

يَا رَجَاءَ الْعُيُونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ *** لَمْ يَكُنْ غَيْرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَائِي (8)
 وَلَقَدْ أَفْتَتِ الْمَفَاوِزُ خَيْلِي *** قَبْلَ أَنْ تَلْتَقِي وَرَادِي وَمَائِي
 فَارْمِ بِي مَا أَرَدْتَ مِنِّي فَإِنِّي *** أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمِي السَّرْوَاءِ
 وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ وَإِنْ كَا *** نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ

وأمام تجاهل كافور رغبة المتنبي، عاود هذا الأخير التعبير عن رغبته وهو يمدحه قائلا:

أَبَا الْمِسْكَ هَلْ فِي الْكَاسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ *** فَإِنِّي أُعْنِي مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ (9)
 وَهَبْتَ عَلَيَّ مِقْدَارَ كَفِّي زَمَانَنَا *** وَنَفْسِي عَلَيَّ مِقْدَارَ كَفِّكَ تَطْلُبُ
 إِذَا لَمْ تُنْطِ بِي ضَبْعَةً أَوْ وَلايَةً *** فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وحين بلغ اليأس والقنوط مبلغه من المتنبي بسبب ممانعة كافور، خاب أمله في مصر وحاكمها، فقرر الهرب بعد أن تيقن من زيف مواعيد كافور الذي أبقاه رهينة عنده، وذلك ما صور المتنبي مضاضته بعد خروجه من مصر قائلا:

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبْتُهَا *** أَنِّي بِمَا أَنَا بَاكٍ مِنْهُ مَحْسُودٌ (10)
 أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ حَازِنًا وَوَيْدًا *** أَنَا الْعَنِيُّ وَأَمْوَالِي الْمَوَاعِيْدُ
 إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَائِبِنَ ضَيَّفُهُمْ *** عَنِ الْقِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ
 جُودُ الرَّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي وَجُودُهُمْ *** مِنَ اللِّسَانِ فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ

لقد كانت هذه الأبيات بمثابة المقدمة التي وضع بها المتنبي حدا لعلاقته بكافور، إذ انبرى بعد ذلك يهجوه علانية بعد أن كان هذا المهجاء مبطنا في مدائحه له من باب التظاهر بحسن النية والطاعة.

ويهمنا في هذا الهجاء المضمّر أو المعلن أسلوب السخرية الذي لجأ إليه المتنبي كتعويض نفسي يريد به إشفاء غليله من كافور انطلاقاً من الإمعان في الزرابة والنكايّة به.

3 : نماذج من الهجاء الساخر في كافوريات المتنبي

يأخذ الهجاء في كافوريات المتنبي شكلين ساخرين اثنين: أولهما مُضمّر جاء في قالب المدح، وثانيهما مُعلن على شكل هجاء مكشوف. النوع الأول جاءت معه السخرية مبطنّة غير معلنة وأساسها التناقض، والنوع الثاني أتت سخريته مكشوفة في قالب مفارقات دلالية مجازية. وكلتا السخريتين تبرز أن المتنبي قد أفلح في الإحاطة بالعرض الأساس من السخرية، الذي "يكون غالباً هجاء مستورا أو تويخاً أو ازدرأ" (11).

مع سخرية التناقض لجأ المتنبي إلى أسلوب المواربة الفنية في التعبير الشعري لكونه لا يزال إلى حوار كافور يمدحه مرغماً اتقاء شره. أما سخرية المفارقة الدلالية المعلنة مجازاً، فقد اعتمدها المتنبي بعد أن تحرّر من سلطة كافور وعزم على السخرية منه بهجاء لا يُقَي ولا يذر.

3-1: سخرية التضاد

تشتغل سخرية التضاد — باعتبارها نمطاً من أنماط خطاب المسكوت عنه — في كافوريات المتنبي من خلال ما يُعرف عند هذا الشاعر بالمدح الذي يراد به ذم. وهو التعبير الشعري الذي يجسد شاهداً بارزاً على تفرّد هذا الشاعر الذي أسمع كافور عكس ما قال. وذلك ما يستجيب لطبيعة السخرية التي "تعبّر عما تريد أن تقوله بقولٍ مضاد له، فتجيء بالذم في قالب مدحي أو بالجد في قالب مازح، أو تأتي بالحق في قالب الباطل" (12).

ولقد كان المتنبي في صنيعة السابق واعياً بطابع السخرية التناقضية لمدائحه الكافورية، مثلما يبرزه قوله عن كافور:

فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَوَاقِعُهُ *** وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوًا لَوَاقِعِهِ (13)

وقوله أيضاً يهجو:

أَرِيكَ الرَّضَا لَوْ أَخْفَتِ النَّفْسُ خَافِيَا *** وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا (14)

ينضاف إلى ذلك تأكيداً لأبي الفتح ابن جني أن مدائحه بشكل عام غير موجهة لمدوحيه، بقدر ما هي موجهة لعلماء اللغة القادرين على حمل معانيها على غير ظاهرها بواسطة الاستدلال، ذلك ما يرشح به قوله لأبي الفتح ابن جني: "أظن أن عنائي بهذا الشعر مصروفة إلى من أمدحه؟ ليس الأمر كذلك، ولو كان لهم لكفاهم منه البيت، فيقول له ابن جني: فلمن هي: يجيب المتنبي: هي لك ولأشبهائك" (15).

وفي ضوء الوعي السابق، يأتي في مقدمة مظاهر سخرية التناقض في الكافوريات مدح المتنبي سواد كافور، علما أن هذا اللون ينطوي داخل النسق الثقافي العربي الذي يصدر عنه المتنبي على معاني الازدراء والاستهجان. ذلك أن العرب "أطلقوا عبارة "الكلمة السوداء" على الكلمة القبيحة النابية أو الجارحة، وكان من معاني "السواد" عندهم الوجد الذي يأخذ الكبدة، وألقوا اسم الأسود على الخبيث من الحيات" (16).

وعلى خلاف هذا المعهود في النسق الثقافي العربي الذي احتفى بالبياض وأزرى بالسواد، سخر المتنبي من كافور بمدح مبطن مهجاء جاء فيه السواد قرين جمال ضياء الشمس، إلى درجة جعل معها المتنبي كافور بمثابة شمس سوداء أغرت الملوك البيض فرغبوا في سواد لونهم. وصور المتنبي ذلك مادحا كافور:

يَفْضَحُ الشَّمْسُ كُلَّمَا ذَرَّتْ الشَّمْسُ *** سُبِّحَ شَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ (17)
 إِنَّ فِي ثَوْبِكَ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ *** لَضِيَاءٌ يُزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءٍ
 مَنْ لَبِئِضِ الْمُلُوكِ أَنْ تُبْدِلَ اللَّوْ *** نَ بِلَوْنِ الْأَسْتَاذِ وَالسَّحْنَاءِ

ولعل ما يؤكد أن المتنبي لم يكن صادقا — حقا — في هذا المدح قوله في كافور بعد أن فرّ منه:

وَأَسْوَدَ مَشْفَرُهُ نَصْفُهُ *** يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى (18)

وإمعانا في السخرية بالمدح المبطن بالهجاء، سخر المتنبي من كافور حين مدحه بأن نسبه يفوق

كل الأنساب شرفا وعزة، قائلا:

وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسَبُ النَّاسُ أَنَّهُ *** إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ (19)
 وَأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ *** مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ

وتتجلى السخرية المبطنّة في البيتين السابقين في كون كافور مثلما هو معلوم عبد أسود نبطي، وأن يكون كافور كذلك معناه رمزيا أنه شبه لقيط بعد أن غير أسياده اسمه ولم يبق له من نسب أسلافه سوى نسب العبودية. يتجلى ما تقدم في الاسم اللاحق لكافور الذي يوحى بالتّمين ودلالة مغريات السلعة، ذلك أن "العرب تميل إلى منح عبيدها أسماء أكثر رقة، فيما تدخر لأبناء الصّلب الأسماء المشعة بالقوة والحشونة والوحشية أحيانا، درءا للحسد ربما أو ترويعا للآخرين ربما، ذلك أنهم يسمون أبناءهم لأعدائهم وعبيدهم لأنفسهم" (20). وإذا كان الأمر كذلك، أتى لكافور من شرف النسب فيما يدعيه له المتنبي في مدحه؟

وتقودنا السخرية من النسب في الكافوريات إلى السخرية من الاسم، فقد لقب المتنبي كافور من

باب السخرية المبطنّة بأبي المسك مثلما يُبرز قوله:

أَبَا الْمِسْكِ ذَا الْوَجْهِ الَّذِي كُنْتُ تَائِقًا *** إِلَيْهِ وَذَا الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتُ رَاجِيًا (21)
أَبَا كُلِّ طَيْبٍ لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحَدَهُ *** وَكُلِّ سَحَابٍ لَا أَحْصُ الْعَوَادِيَا

بيد أن هجاء المتنبي كافور فيما بعد، فيه ما يكشف عن زيف وكذب المدح السابق. مثال ذلك ما جاء في بيتين اثنين صغره فيهما من باب التحقير، سماه في أولهما بالخويدم، فيما سماه في ثانيهما بالكويفير، يقول:

وَنَامَ الْخُوَيْدِمُ عَن لَيْلِنَا *** وَقَدْ نَامَ قَبْلَ عَمِّي لَا كَرَى (22)
أَوْلَى اللَّثَامِ كُوَيْفِيرٌ بِمَعْدِرَةٍ *** فِي كُلِّ لَوْمٍ وَبَعْضِ الْعُذْرِ تَقْنِيدُ (23)

وبالعودة إلى كنية أبي المسك التي أطلقها المتنبي على كافور من باب المدح المبطن بالهجاء، ذكر المتنبي ما يناقضها حينما سخر من نتانة رائحة كافور بقوله إن الموت لا يأخذ أمثاله بيده وإنما يأخذهم بعودٍ لنتانتهم مثل الجيف الكريهة الرائحة، يقول:

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتَ نَفْسًا مِنْ نُفُوسِهِمْ *** إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ تَنْتِنَاهَا عُوْدُ (24)

ووقف المتنبي أيضا عند نتانة رائحة كافور، عندما هجاه على نحو فاحش بأن همته لا تتجاوز إرضاء شهوتين أساسيتين فيه: شهوة الجنس و شهوة الأكل. يقول:

الْعَبْدُ لَا تَفْضُلُ أَخْلَاقُهُ *** عَن فَرْجِهِ الْمُتْنِنِ أَوْ ضَرْسِهِ (25)

وعلاوة على ما سبق من مدح مُضمّر للبعض والجزء من كافور، تتجلى سخرية التناقض في المدح الذي يراد به ذم في الكافوريات، من خلال مدح المتنبي كافور بأن رؤيته تثير الفرح والطرب. وعبر المتنبي عن ذلك حين مدح كافور وكان قد حمل إليه ست مئة دينار قائلا:

وَمَا طَرَبِي لَمَّا رَأَيْتُكَ بِدَعَاةٍ *** لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَكَ فَأَطْرَبُ (26)

ومثار السخرية في هذا البيت هو تحويل المتنبي كافور إلى كائن مُضحك، كما لو أنه مُشوّه أو غير مألوف. ولقد كان أبو الفتح ابن جني من أوائل من انتبهوا إلى السخرية المبطنّة في البيت السابق، وذلك حين سأل المتنبي: "أجعلت الرجل أبا زنة (أي قردا) فضحك المتنبي، وفهم ابن جني من هذا الضحك أن الشاعر كان يرمي إلى ما وراء المدح من معنى" (27).

وتتعرّز سخرية المدح المقلوب في البيت السابق بمعاني أبيات أخرى قالها المتنبي حين جهر بهجاء

كافور، وفيها يقول:

فَإِنْ كُنْتَ لَا خَيْرًا أَفَدْتُ فَإِنِّي *** أَفَدْتُ بِلَحْظِي مِشْفَرِيكَ الْمَلَاهِيَا (28)
 وَمِثْلِكَ يُؤْتَى مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ *** لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحِدَادِ الْبَوَاكِيَا
 وَتُعْجِبُنِي رَجَالًا فِي النَّعْلِ، إِنِّي *** رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا (29)
 وَيُذَكِّرُنِي تَخْيِيطُ كَعْبِكَ شَقُّهُ *** وَمَشْيُكَ فِي تَوْبٍ مِنَ الرِّيتِ عَارِيَا

من خلال مجموع هذه الآيات التي كشف بها المتنبي عن مظهر التناقض في مدحه كافور على نحو كاريكاتوري بليغ، يتضح لنا أن ما أطرب المتنبي في كافور حين مدحه هو هيئته العجيبة والمضحكة، بسبب كبر وضخامة شفتيه، ثم غلظ جلد قدميه المشقوقتين اللتين يبدو معهما كافور منتعلا وهو حاف. ومن ذلك أيضا سواد جلده اللامع والمائل إلى الصفرة كما لو أنه ملطخ بالزيت، وهناك أخيرا جهله بقذارته وتناثته.

ومجموع هذه المعاني الساخرة التي أسمعها المتنبي كافور على نحو مقلوب، يكون المتنبي قد أجاب عن سؤال هام بثه هنري بيركسون حينما تساءل: "لماذا نضحك من زنجي؟" (30) وهو السؤال المربك الذي طرحه كثير من علماء النفس، أمثال: هيكر وكريبلن وليبس وقدموا له أجوبة متباينة. ولا بد أن نخلص مما تقدم ذكره إلى أن طرب المتنبي لمجرد رؤية كافور، ينطوي في الحقيقة على سخرية أساسها ضحك مشوب، يضمن حقدا وضغينة ورغبة في الانتقام والقصاص. ذلك أن الضحك مثلما يرى بيركسون "تأديب قبل كل شيء، وقد وجد ليخزي، فلا بد أن يُشعر موضوعه بشعور مؤلم" (31).

3- 2 : سخرية المفارقة الجازية: بتوسيع مجال التحليل فيما نحن فيه، ونقله من مستوى السخرية بالتضاد من خلال المدح الذي يراد به ذم، إلى مستوى السخرية بالمفارقة الجازية، يبرز لنا أثر الاشتغال الجازي للسخرية في كافوريات المتنبي. مجازات تبدو للوهلة الأولى بسيطة لكثرة تداولها، لكن تأويلها لا يتم إلا من خلال النظر إليها بوصفها إبداعا يسهم في خلق تأثير خفي في إبلاغية وبلاغة اللغة الشعرية الساخرة. ذلك أن المفارقة اللفظية — حسب ما ترى سيزا قاسم — هي مثل الجاز "شكل من أشكال القول، يساق فيه معنى ما، في حين يقصد منه معنى آخر غالبا ما يكون مخالفا للمعنى السطحي الظاهر... إنها تشمل على دال واحد ومدلولين اثنين: الأول حرفي ظاهر وجلي، والثاني متعلق بالمغزى وموحى به، خفي" (32).

في ضوء ما تقدم قوله، يبدو لنا المتنبي في سخريته من كافور بلغة مجازية مفارقة، كما لو أنه يؤكد أن مفردات اللغة العادية أضيق بكثير عن منكمي هجائه الذي يريد به الإقذاع في تصوير العيوب

الخلقية والخلقية لكافور. لأنه في المجاز فقط تتحول الكلمات إلى عوالم صغيرة تنطوي على معاني أكثر بلاغية وطواعية بفعل إيجائيتها المستثيرة للعرف والمعرفة الثقافية العامة المشتركة بين المتكلمين والمخاطبين. ولا شك أن اعتماد المتنبي في سخريته من كافور على المفارقة المجازية، يعزى أساساً إلى ما للمجاز من وظائف إقناعية ونفسية هامة تنبؤاً بموجبه العبارات المجازية أعلى درجات السلم الحجاجي مقارنة بالعبارات المستعملة استعمالاً حقيقياً (33). وهذا يعني أن وظيفة المجاز في العملية التخاطبية وظيفة مزدوجة، تخاطب العقل من أجل إقناعه، مثلما تتوجه إلى النفس من أجل التأثير فيها. وهذا ما يجعل المجاز في الشعر أو غيره، أداة لتمكين المعنى في العقول والنفوس.

هكذا بدأ المتنبي هجاء كافور بلغة شعرية عادية وتقريرية، ركز فيها على العيوب الخلقية والخلقية، مثل قوله يهجوهُ بالصدر والحِسة والجن:

أَمِينًا وَإِخْلَافًا وَعَدْرًا وَحِيسَةً *** وَجُبْنًا، أَشْخَصًا لُحْتًا لِي أُمَّ مَخَازِيَا؟ (34)

وقوله يهجوهُ على نحو فاحش بقلة العقل وضخامة الهيئة والافتقار إلى اللحية والذكر:

لَقَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ الْخِصْيِّ *** أَنَّ الرُّؤُوسَ مَقَرُّ النَّهْيِ (35)

فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ *** رَأَيْتُ النَّهْيَ كُلَّهُ فِي الْخِصْيِ

مِنْ كُلِّ رِخْوٍ وَكَاءِ الْبَطْنِ مُنْفَتِقٍ *** لَا فِي الرَّجَالِ وَلَا النَّسْوَانِ مَعْدُودُ (36)

لكن المتنبي سرعان ما انتقل إلى الإمعان في هجاء كافور بلغة مجازية ذات ظلال إيحائية ساحرة أخرجت كافور من نطاق الأدمية انطلاقاً من تشبيهه بمجموعة من الحيوانات العجيبة أو المرذولة.

فمن الجمل استعار المتنبي المشفر المثقوب من أجل الزمام، فأسنده لكافور سخرية من قبح صورة وجهه بسبب شفثيه الغليظتين المثيرتين للضحك. ذلك ما يتجلى في قوله وهو يهجو أهل مصر بالجن لقبولهم حكم كافور:

وَأَنَّ ذَا الْأَسْوَدِ الْمُثْقُوبَ مِشْفَرُهُ *** تُطِيعُهُ ذِي الْعَضَارِيطِ الرَّعَادِبِ دُ (37)

وغير بعيد عن الجمل في كبر شفثيه وغرابتها كنى المتنبي عن كافور في ضخامته وبشاعته بالكركدن، وهو الحيوان المعروف بضخامة هيئته وخلو جلده من الوبر وقصر قوائمه وغلظ جلده. وأمام مجموع هذه المواصفات البشعة المميزة للكركدن، تحسر المتنبي على مدح شبيهه كافور، معتبراً ما قال فيه من مدح مجرد رقيّ اتقى بها بطشه من أجل نيل عطايها. وعن ذلك قال:

وَ شِعْرٌ مَدَحَتْ بِهِ الْكَرْكَدَنُ *** بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرَّقْيِ (38)

فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَّهُ *** وَ لَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ السُّورَى

ولم تقف سخرية اللغة المجازية في الكافوريات عند حد الخلقة الجسدية، بل تجاوزتها إلى المستوى الخُلقي، حيث صور المتنبي لؤم ودناءة كافور انطلاقاً من إدراجه ضمن فصيلة الكلاب، مصوراً كيف أن آخر ما يتصور هو أن يحيا حتى يُسيء إليه أرذل الناس وأحقرهم مثل كافور. يقول:

مَا كُنْتُ أَحْسِبُنِي أَبْقَى إِلَى زَمَنِ *** يُسِيءُ بِي فِيهِ كَلْبٌ وَهُوَ مَحْمُودٌ (39)

وضمن فصيلة الكلاب كنى المتنبي أيضاً لكافور بابن آوى الذي يُضرب به المثل في الخسة واللؤم، وقد صور المتنبي ذلك حينما أكد أن كافور — من فرط خسته — لا يستحق حتى الهجاء. وعبر عن ذلك قائلاً:

وَلَمَّا أَنْ هَجَوْتُ رَأَيْتُ عَيًّْا *** مَقَالِي لِابْنِ آوَى يَا لَيْئِمٌ (40)

أما فصيلة الطير فلم يجد المتنبي فيها ما يشبهه به كافور في سواده وشؤمه سوى الغراب، فيما شبه من حوله من سدنته بالرَّحَم والبوم. و في ذلك يقول:

كَانَ الْأَسْوَدَ اللَّابِيَّ فِيهِمْ *** غُرَابٌ حَوَّلَهُ رَحْمٌ وَيَوْمٌ (41)

خاتمة

يظهر من مجمل ما عرضنا له في الفقرات السابقة أن للسخرية باعتبارها نمطاً من أنماط خطاب المسكوت عنه، أثراً بارزاً في شعرية كافوريات المتنبي. سخرية مضمرة تارة ومعلنة تارة أخرى، وفي كلتا الحالتين لا بد للقارئ المؤول من المراهنة على الاستدلال، لأن المتنبي في الحالة الأولى يسخر بعكس ما يقول، وفي الحالة الثانية يسخر بطريقة مجازية. وفي هذين النمطين من السخرية حقق المتنبي تشفيه من كافور الإخشيدي، وذلك انطلاقاً من فضح أهم مطاعنه الخلقية والخلقية، مقدماً له بذلك واحدة من أهم الصور الكاريكاتورية البليغة جدا في الهجاء الشعري العربي. وههنا لا بد أن نتساءل عمن يسخر من كافور من خلال شعر المتنبي أهو المتنبي أم النسق الثقافي العربي الذي يتحدث المتنبي باسمه؟ ثم أليست السخرية والمجاز لدى الفرد أو الثقافة أدواتاً تعبيرية مثلى تعرب بشكل بليغ عن المقاصد والمعاني الظاهرة والخفية؟

الهوامش

- 1- قدمت هذه الدراسة ضمن أعمال الندوة التي نظمها فريق البحث في الفكاهة والسخرية في الأدب والثقافة في جامعة ابن زهر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، يومي: 17 و 18 يونيو 2011.
- 2- طه حسين: مع المتنبي، دار المعارف، القاهرة، ط. 12، (د.ط)، ص. 279.
- 3- أبو الطيب المتنبي: ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتيبان في شرح الديوان، ضبطه وصححه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، 1978، 289/1.

- 4- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 109/3.
- 5- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 45/1.
- 6- مصطفى الشكعة: أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين، عالم الكتب، بيروت، ط.1، 1983، ص.362 وما بعدها.
- 7- طه حسين: المرجع نفسه، ص.295.
- 8- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 36/1.
- 9- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 182/1.
- 10- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 41/2—42.
- 11- مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط.1، 1974، ص.263.
- 12- عبد النبي ذاكر: العين الساخرة، أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربية، منشورات المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، مطبعة الكماين، الدشيرة الجهادية، أكادير، ط.1، 2000، ص.9.
- 13- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 44/1.
- 14- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 294/4.
- 15- أبو العلاء المعري: شرح ديوان المتنبي، تحقيق: عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، 1988، 350/4.
- 16- مبروك المناعي: (شعرية السواد في كافوريات المتنبي)، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، الجزء 33، المجلد 9، 1999، ص.268.
- 17- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 34/1—35.
- 18- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 43/1.
- 19- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 186/1.
- 20- محمد بدوي: (أمثلة العبد الآبق)، مجلة فصول، المجلد 5، العدد 4، 1997، ص.275.
- 21- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 289/4.
- 22- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 42/1.
- 23- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 46/2.
- 24- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 42/2.
- 25- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 204/2.
- 26- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 186/1.
- 27- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط.2، 1986، ص.282.
- 28- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 296/4.
- 29- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 295/4.
- 30- هنري برسون: المرجع نفسه، ص.36.
- 31- هنري برسون: المرجع نفسه، ص.128.
- 32- سيزا قاسم: (المفارقة في القص العربي المعاصر)، مجلة فصول، المجلد 2، العدد 2، 1982، ص.144.
- 33- للتوسع في ما يخص مفهوم السلم الحجاجي وكيفية تراتب الحجج فيه قوة وضعفا، ترجى العودة إلى كتاب الفرنسي أوزوالد ديكرول اللساني Oswald Ducrot: Les échelles argumentatives, Ed Minuit, Paris, 1980, P. 17 . . .
- 34- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 294/4.
- 35- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 43/1.
- 36- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 42/2.
- 37- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 44/2.
- 38- أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 43/1—44.

39-أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 43/2.

40-أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 152/4.

41-أبو الطيب المتنبي: المرجع نفسه، 152/4

صدر حديثا

